

على علاقة طيبة بالخلافة منذ أيام الناصر كما رأينا فيما سبق أن بنى قيصر تمكنا في أواخر النصف الأول من القرن السادس الهجرى ان يؤسسوا في جزيرة قيس دولة كان لها تأثير كبير في تاريخ الخليج . وقد مكن لهذه العائلة من الحكم امتلاكها لعدد من السفن كانت تستغلها للغوص والقطاعة (النقل البحرى) وكانت لها تجارة رائجة مع الهند وافريقيا . ولما كان العيونيون هم الآخرون لهم سفنهم ويعملون بالغوص والصيد والتجارة فقد كان لا بد أن تنشأ المنافسة بين القوتين وقد حاول ابوكرزاز بن سعد بن قيصر سنة (٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م) الهجوم على البحرين وجرى لذلك حملة بحرية بقيادة أخيه نام سار بن سعد نزلت في سكرة وتصدت لها قوة العيونيين بقيادة ابوعلى الحسن وابنه شكر ودارت بين الجمعيين معركة ضارية انهزم فيها جيش قيس وأسر قائده . ولكن التنافس لم يخف بين قيس والبحرين وظلت قيس تتحرش بالبحرين وساعدها على ذلك تمزق الأسرة العيونية - كما أسلفنا - وتنازع البيوتات العيونية على الحكم . فلما اغتيل الأمير محمد بن احمد بن أبى سنان لجأ ابنه الفضل الى الخليفة طالبا دعمه وقد زوده الخليفة بالمنجنقات والنفط اللازم لقذائفها وغيرها من السلاح وطلب منه الاتصال بأمر قيس لينسق معه عملية اعداد الجيش . ومن الواضح أن الخليفة طلب من أمير قيس مساعدته على أن يحول

لدار الخلافة جزءا مما يحصله أمير قيس من عائدات البحرين . وهذا يفسر سر الاتفاقية المشنومة التي وقعها الفضل مع حاكم قيس ، اذ ما كاد يعود من عند الخليفة ويتصل بحاكم قيس الأمير غياث الدين بن تاج الدين جمشيد حتى طلب منه الأخير توقيع اتفاقية تحفظ لقيس جزءا كبيرا من عائدات البحرين ووافق الفضل وكانت هذه الاتفاقية هى كل ما يطمع فيه حكام قيس فقد تمت بموافقة الخليفة فلها اذن صفة الشرعية وجعلت البحرين شبه تابعة لهم وكانت في نفس الوقت المسمار الأخير في نعش الدولة العيونية وقد نصت الاتفاقية على أن يكون لأمر جزيرة قيس ما يلي :

- ١ - جزيرة اكل ومقاسمها وبرها وبحرها وخراجها وما يتعلق بها .
- ٢ - جزيرة الجارم وما يتعلق بها .
- ٣ - جزيرة الطيور وهى (تواره وقتان) .
- ٤ - أدم المدبغة ما خلا مائتى جلد .
- ٥ - ما في ظهر الحورة وظهر سماهيج من مساكس السمك الى زروان .
- ٦ - خمسمائة دينار في كل سنة لملك قيس .
- ٧ - أن يكون الخراج والمقاسم (النخيل) والخاصة والحلقة وطراز الغاصة والطير والطيارات والعشور بين ملك قيس وملك العرب نصفين .
- ٨ - ان يكون ملك قيس من مقاسم تاروت (الحسينى) و (الحساس) ومقسام القصر .

إِمَارَة قَيْسٍ تَنْقَلُ وَلاَءَهَا

طَبَقًا لِلنَّغِيرِ مَوَازِينِ الْمَتَوَى

بَيْنَ اِخْتِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَالْخَوَارِزْمِيِّينَ

ولكنه لم يتمتع طويلا بثمار النصر
فسرعان ما ذاعت نصوص الاتفاقية
وكانت عاملا حاسما في القضاء على
العيونيين .

كانت قيس اذن قوة بحرية وهذا كان
مصدر قوتها ونقرأ معا ما كتبه الشريف
الادريسي المتوفى عام (٥٦٠ هـ /
١١٤٥ م) حول الموضوع قال :

« جزيرة كيش وهي جزيرة مربعة
طولها اثنا عشر ميلا وعرضها اثنا عشر
ميلا وفيها مدينة قيس تولاهها عامل من
اليمن فحصنها وأحسن الى أهلها وعمرها
وأنشأ بها اسطولا وصاحب جزيرة قيس
يغزو بهذا الاسطول مدينة الزاج ويصل
الى الكمرون وأهل الهند يخافونه ويهابون
شره ويواسونه بالمراكب المسماة
بالمشعيات يكون طول المركب منها طول
الغراب^(١٦) الكامل من عود واحد يجدف

٩ - من مقاسم القطيف بستان القصير
وبستان المشعري ودالية الدار والدار
والفايدية ونصف طراز الغاصة الذين هم
ليسوا من أهل القطيف وخمسة وثلاثين
بهارا من الخراج لملك قيس زيادة على
النصف عوضا عن بستان المصفاة التي
في الاحساء .

والمتمأمل في نصوص الاتفاقية يكتشف
أن (قيس) جردت البحرين من معظم
دخلها ولم تترك لسكانها سوى أقل القليل
وتأتى خطورتها من أنها جعلت لحكام
قيس ولسلطان شيراز عندما أصبحت
قيس تحت سلطانه ولأمراء هرمز فيما
بعد ذريعة للتدخل في شئون البحرين
والقطيف . وكانت الاتفاقية ثمنا باهظا
لنصر رخيص وليس مستغربا بعد ذلك أن
جعلت سرية وساعدت قيس الفضل على
استعادة الحكم في البحرين والقطيف

فيها مايتا رجل وأخبر مخبر في وقت هذا التأليف أن عند صاحب مدينة قيس (كيش) من هذه المراكب المسماة بالمشعيات خمسون مركبا كل واحد منها من قطعة واحدة وعنده في ساير المراكب الملققة جملة عديدة . وهو الآن على هذا الحال يغزو ويسبى وعنده أموال كثيرة وليس لأحد به طاقة ولدينة قيس زروع وأغنام وأثمار وبها مغاص اللؤلؤ الجيد .

يستفاد من هذا النص أن القوة البحرية لقيس كانت قوة لا يستهان بها في وقت كانت الجيوش حتى اعتاها لا تجرؤ على اجتياز البحر ، فالغول توقفوا عند الشاطئ الفارسي للخليج لأنه لم تكن لهم اساطيل يعبرون بها المياه وسلطان مسقط وعمان اسس امبراطوريته التي امتدت للساحل الافريقي الشرقي معتمدا على اسطوله . فاذا صح ما اورده الادريسي فان خمسين سفينة ضخمة من نوع الغراب المشار اليه بالاضافة الى الاعداد الأخرى من السفن العادية لم تكن قوة بسيطة في ذلك الوقت .

ويصف ياقون المتوفى سنة (٦٢٦ هـ / ١٤٢٩ م) جزيرة قيس بأنها جزيرة في بحر عمان دورها اربعة فراسخ وهى مدينة مليحة المنظر ذات بساتين وعمارات جيدة وبها مسكن ملك ذلك البحر صاحب عمان وله ثلثا دخل البحرين^(١٧) وهى مرفأ مراكب الهند وبر فارس وجبالها تظهر منها للناظر ويزعمون

أن بينهما اربعة فراسخ . رأيتها مرارا وشربهم من آبار فيها ولخواص الناس صهاريج كثيرة لمياه المطر وفيها أسواق وخيرات واللكها هيبة وقدر عند ملوك الهند لكثرة مراكبه ودوانيجه وهو فارسي شكله ولبسه مثل الديلم وعنده الخيول العرب الكثيرة والنعمة الظاهرة وفيها مغاص اللؤلؤ وفي جزائر حولها كثيرة وكلها ملك صاحب كيش ورأيت فيها جماعة من أهل الأدب والفقه والفضل . وكان بها رجل صنف كتابا جليلا فيما اتفق لفظه وافترق معناه . ضخم رأيته بخطه في مجلدين ضخمين ولا أعرف اسمه الآن .

وجاء عن جزيرة قيس في الموسوعة الاسلامية طبع ليدن ولندن سنة ١٩٢٧ صفحة ٦٤٩ ما يلي :

« قيس جزيرة صغيرة تقع في الخليج الفارسي في القسم الذى يسميه جغرافيو العرب في القرون الوسطى ببحر عمان وتقع على ٥٢° من خط الطول (جرينتش) شرقا و ٢٤° من خط العرض شمالا ويجوز اعتبارها من اهم الجزر الفارسية في الخليج بعد جزيرة كشم وتمتد الى ١٠ أميال طولاً و ٥ أميال عرضاً وتتفصل عن البحر بممر طوله ١٢ ميلا مما يجعله ممرا مائيا آمنا وارض الجزيرة مسطحة رغم تواجد بعض الصخور عليها وهى مزروعة أكثر من أية جزيرة أخرى في الخليج ويشير علماء الجغرافية من العرب والفرس في القرون الوسطى الى رخائها وازدهارها وبصفة

خاصة الى ثروتها من الأشجار والنخيل
والحقول والحدائق وصهاريج الماء
بالإضافة الى التجارة والملاحة . وكان
عدد سكانها في ذلك الوقت لا يستهان به
يمارسون صيد اللؤلؤ ونزلها عرب من
قيس واسم قيس معرب عن الفارسية
وهي (كيس) او (كيش) .

مما سبق يتبين لنا مدى القوة التي
كان يتمتع بها سلاطين بنى قيسر ومدى
الثراء الذي كانت تتمتع به قيس لدرجة
جعلت حكامها يمدون نفوذهم لبعض
شواطئ عمان وسواحل فارس في القرن
السادس وأوائل السابع الهجرى . وكان
ولاء بنى قيسر للخلافة العباسية في
بغداد كما كانوا يدفعون للخليفة جزءا
من وارداتهم وكان للخليفة الناصر ممثل
في قيس يتولى استلام ما للخلافة من
عائدات سنوية . وهنا لا بد من وقفة
لمناقشة طبيعة مساعدة الأمير غياث
الدين جمشيد للفضل بن محمد
العيونى . فقد عرفنا أن الأمير محمد كان
على صلة وثيقة بالخليفة وأن ابنه الفضل
لجأ الى الخليفة الناصر بعد مقتل أبيه
طالباً مساعدته على الثأر . والنصوص
التي بين أيدينا تقول أن الخليفة زوده
ببعض الجند والسلاح ولكننا مع ذلك
نراه يلجأ الى غياث الدين ابن الأمير تاج
الدين جمشيد حاكم قيس وهذا يؤكد لنا
أمرين : الأول أن الخليفة أرسل الفضل
الى حاكم جزيرة قيس مع توصية
بمساعدته خاصة وقيس بولائها للخليفة
وبقوتها البحرية كانت مركز ثقل في

المنطقة ، والأمر الثانى أن : الاتفاقية
السرية التي وقعها الفضل مع الأمير
غياث الدين كانت معروفة للخليفة
وبمباركته خاصة وهى تحول جزءا كبيرا
من عائدات البحرين الى قيس التي كانت
بدورها تدفع جزءا من عائداتها الى
الخليفة بمعنى آخر أن الخليفة الناصر
طلب من حاكم قيس مساعدة الفضل
العيونى على استرداد ملك أبيه مقابل
عائدات تأخذ قيس جزءا منها مقابل
المساعدة العسكرية وتحول جزءا منها
لمقر الخلافة .

على أى الأحوال لقد أحترم أمراء
البحرين المتعاقبين بعد الفضل العيونى
هذه الاتفاقية على الرغم من أنها كانت
السبب في القضاء على الحكم العيونى
وفتح الباب لدولة العصابة ثم الجبور
والشئ المنطقى هنا هو أن الاتفاقية بقيت
بعد ذهاب الفضل لأن القوة البحرية في
قيس كانت وراء ضرورة الالتزام بها .
وبقيت العلاقة بين البحرين وقيس ودية
خلال الفترة من ٦٠٦ هـ الى ٦٢٦ هـ
وهى الفترة التي انتهى فيها حكم الأمير
غياث الدين بن الأمير تاج الدين جمشيد
وخلفه في حكم قيس الملك سلطان قوام
الدين .

أما علاقات قيس بامارة هرمز فكانت
سيئة فقد وقفت هرمز بقوتها البحرية
منافسا صعبا أمام قيس ولما كانت هرمز
تملك هى الأخرى اسطولا قويا للتجارة
والصيد والغوص فقد وقعت بين
الامارتين عدة مناوشات وازاء هذا